ضحكة الشك

كانت السماءُ كلوحةٍ مُظلمة، تتنفَّسُ النجومُ من خلالها بشُحوب، وكأنَّها تخشى أن تُضيءَ العالمَ أكثرَ ممَّا ينبغي؛ فتتنفَّسَ كلَّ معانيهِ الخَفيَّة.

ليلةٌ باردةٌ تُغلِّفُها سكينةُ اليأس، إذْ كان قد هربَ من المدينةِ، من عملهِ، من زحامِها وضجيجِها. هربَ من شيءٍ بدا وكأنَّه يُطارده في الداخلِ والخارجِ على حدٍّ سواء.

لقد اعتادَ أدهمُ أن يجدَ الطمأنينةَ حينما ينشدُها بالهرب، ويُراكمَ سيرَ الأيامِ بتقلُّباتِها، ويأخذَ الظواهرَ من الأمور، حتى تمضيَ أيَّامُهُ بتسارعٍ مُذهلٍ، وبعمقٍ جافٍّ، لا ماءَ يُورِدُهُ، ولا يُسقِيهِ لبقيَّةِ أيَّامه.

يخطُّ الأرضَ بأصابعهِ المرتعشةِ قربَ النَّارِ التي أشعلها توًّا، يتأمَّلُ الدفءَ حين سرى في جسده، واصلًا لكلِّ أطرافِه، يُرخيها، ويُوقِفُ رجفَتها، ويُعيدُ اتِّزانَها في هذه الأثناء، سمعَ خَشخَشَةَ ثوبٍ يُسحَبُ، وخُطواتٍ تبدو مُتزنةً، ورائحةَ نباتاتٍ دهست أخذَ يجولُ ببصرِه يبحثُ عن مصدرِ الصَّوتِ، ولكنَّ الصَّوتَ توقَّف.

عاودَتِ الرَّجفةُ أطرافَه، وغمرَهُ خوفٌ خفيضٌ لم يُجاوِز يديه، وقبلَ أن يعلَقَ بقلبِه، عاودَ النَّظرَ إلى النَّارِ طالبًا منها أن تقومَ بعملِها فتسكُنَهُ مرَّةً أخرى، فليسَ وجودُها للدفء وحدَه، ولكنَّ صوتَ فرقعاتِها المتوَاتِر يُهدِّئُ نفسَه، استقرَّت يداهُ على رُكبتيهِ، وعاودَهُ الدِّفءُ ذاته.

بعدَ ثانيتين، أحسَّ بحركةِ ريحٍ سريعةٍ، ثمَّ برد حال بينه وبين النار وظل طويل فارع مهيب منظره أناخ الظل طوله بجانبه على عجَلٍ مُفزع، وقبلَ أن يَشخَصَ بصرُهُ رُعبًا، التَفَّ الرَّجُلُ عليهِ بعَينَينِ بلا قاعٍ لهما، وأمسكَ فمَهُ حتَّى عاودَتِ الصَّرخةُ أدراجَها مُختنِقةً في فمِهِ، وخارجةً من عينيهِ المفتوحةِ على مِصراعيها ،أمسكَ بهِ بشدَّةٍ حتَّى ارتخَت ملامِحُ أدهم، ثمَّ تكلَّم بصوتٍ عميق:

"ستَسمَعُني حتَّى أُنهيَ حديثي دونَ أن تَصرُخ."

أشارَ أدهمُ بالقبول، وعرقُهُ يتصبَّب، وعيناهُ جاحظةٌ، وأنفاسُهُ مُنقطِعة، أزالَ يدَهُ من فمِهِ بهدوءٍ، ثمَّ راحَ يجولُ عينيهِ بسرعةٍ خاطفةٍ في المكانِ، ثمَّ استقرَّت عيناهُ أخيرًا على النَّارِ التي تستعرُ، تُشبِهُ صاحبَنا الصَّامتَ الصَّارخ تكلَّم الرَّجلُ بصوتٍ عميق: "لا تقلَقْ..."

ثمَّ أردفَ السُّكوتَ بعدَهُ خاوِيًا من الصَّمت أخذَ يُحرِّكُ النَّارَ بعُودٍ، بهِ يزيدُ اشتعالَها، ثمَّ أردفَ قائلًا:

"لا تخَفْ، هذه البِدايةُ فقط هيَ التي تبدو مُخيفة... ستَعتادُ...

بدأ نبضُ أدهمَ ينتظمُ مع كلِّ فرقعةٍ للنار، وكأنَّ خيارَ الرَّكضِ والهروبِ الذي يُساورُ قلبَه، شالّاً قدميه.

كلُّ شيءٍ ساكنٌ إلَّا من السَّعيرِ الذي يسري في جوفِهِ المكتوم "ستعتادُني يا صاحبي، لا تُخفِ خوفَك ولكن لا تصرخ، لأنَّك ستُزعجني." نظرَ إليه بذاتِ العينينِ المفزِعَتَينِ، ثمَّ تابعَ: "وحينَ أنزعجُ... سأُزعجُك حقًّا."

لم يرُدَّ أدهمُ، لكنَّ أنفاسَهُ أصبحت ثقيلة، وعيناهُ لا تُفارِقانِ الرَّجُلَ الذي بدا وكأنَّه جزءٌ من الظلامِ نفسه عرقُهُ يتصبَّبُ، وأنفاسُهُ محبوسةٌ في صدرِهِ، كما لو كانَ يحاولُ أن يتنفَّسَ وهوَ غارقٌ في لُجَّةِ بحرٍ عميق.

وصلَ الصَّمتُ إلى رأسِ أدهمَ، فراغٌ من كلِّ شيءٍ إلَّا سؤالٌ واحدٌ:

هل أنا أجنُّ الآن؟ هل هذا هو الجنون؟

يُهمهِمُ بصوتٍ مُتقطِّعٍ ويُكرِّر:

"يحيى... يبدو أنَّه محقٌّ..." كان السُّؤالُ يتساقطُ في ذهنِهِ مثلَ الحَصى في عمقِ البئر كان يتمنَّى لو يستطيعُ إغلاقَ الأبوابِ التي فُتِحَت في قلبِهِ، كان يودُّ لو يصرُخَ أو يُصارِعَ حتى ينفي ما هو كائنٌ أمامه.

بدأ يَتمتمُ: "أنتَ..." ولكنه لم يُكمِل، حتى اختفى الرَّجلُ من أمامه بلمحِ البصر حينها، انطلقَ عِقالُ قدمي أدهمَ، ليركضَ إلى خيمتِه لم يستطع أدهمُ النَّومَ تلكَ الليلة، جلسَ داخلَ خيمتِه، عيناهُ مُثبَّتتانِ على مَدخلِها، كأنَّ شيئًا ما قد يَظهَرُ فجأة، لكنَّه كان وحيدًا، أو على الأقلِّ... هكذا بدا له.

مع شُروقِ الشَّمس، قرَّرَ أن يعودَ إلى المدينة لم يكن واثقًا ممَّا حدثَ الليلةَ الماضية، لكنَّه لم يستطع تجاهُلَ أثرِه، شيءٌ ما تغيَّرَ بداخله، شيءٌ في رأسِهِ ليسَ صائبًا.

عادَ إلى المدينة، مُحاولًا أن يهربَ من ظِلالِ تلكَ اللَّحظة، لكنَّه كانَ يشعرُ أنَّ شيئًا ما يتلاعبُ به ألم تكن تلكَ اللَّحظةُ في الصَّحراءِ هيَ الحقيقية؟

هل كان هوَ المجنون؟ أم أنَّ كلَّ شيءٍ حولَهُ هوَ الذي يَعكِسُ الجنون؟ كلُّ يومٍ كانَ يمرُّ، كانت شكوكُهُ تزداد.

وحينَ التَقيا، دخلَ في حديثٍ عميقٍ مع يحيى، صديقِهِ القديم، الذي كانَ يرى الأمورَ بمنظورٍ مُختلف.
''لا تبحثْ عن الإجابةِ يا أدهم... لأنَّك إذا وجدْتَها... لن تُعجبَك.

كان صوتُ يحيى هادئًا، لكنَّ كلماتِه تَسلَّلت إلى صدرِ أدهمَ كخنجر، تلك النَّظرةُ الغامضةُ في عينيهِ كانت تُثيرُ فيهِ شعورًا لا يستطيعُ أن يصفَه، لم يكن قلقًا، بل كان شيئًا أشدَّ خطورة، كأنَّ يحيى يعرفُ شيئًا لن يُخبِرَهُ به.

جلسَ أدهمُ أمامَه، يشعرُ أنَّ الأرضَ تحتهُ أصبحت هشَّة منذُ رحلتِه الأخيرةِ إلى البَرّ...

نظرَ الطَّبيبُ يحيى بسرعةٍ إلى ساعتِه ''لقد قلتَ إنَّ موعدَنا الساعةَ الواحدةَ ظهرًا، لماذا قدِمتَ في الثالثة؟''

كان أدهمُ ينظرُ إليه، يَخشَى أن يُجيبَ بأنَّها فعلًا الواحدةُ ظهرًا، فتظاهَرَ قائلًا: ''معَك حقٌّ، يبدو أنَّني مُتعَب، وأردتُ أن أُطيلَ النَّوم.''

ثمَّ أخذَت عَيناهُ تَجوبانِ المكانَ باحثًا عن السَّاعةِ ليتأكَّد، كانت الثالثةُ بالفعلِ واضحةً جدًّا على الحائط.
أَخفَضَ رأسَه، ولم يعُد يُنصِتُ لكلامِ يحيى، كأنَّهُ يَعبُرُ لحظةَ الحقيقةِ بخُشوع ، الحزنُ وَحده مَن أطرَه.
رَفَعَ رأسَهُ بعَجَلةٍ ليَسمَعَ جملةَ يحيى: ''أنا أراكَ مُنهَكًا، لكنَّ هذا ليسَ جُنونًا.''
قالَ يحيى بابتسامةٍ صغيرةٍ: ''رُبَّما هو شيءٌ آخر.''

''شيءٌ آخر؟ كفاكَ غُموضًا، يحيى!

إنَّني أسمعُ أصواتًا تُناديني في الليل، أرى ظِلالًا تتحرَّكُ حيثُ لا يُفترضُ أن تكون كيفَ لا يكونُ هذا جنونًا؟''
سَألهُ يحيى: ''كيفَ تُناديكَ؟''

''لا أعلم... أتذكُر؟ قبلَ أُسبوعٍ من الآن؟ لستُ مُتأكِّدًا إن كان أُسبوعًا... المهمُّ أنَّ هناكَ صوتًا يُوقِظُني مِن نومي، يُنادي باسمي، فَزِعتُ، وذهبتُ إلى النَّافذةِ لأبحثَ عن مصدرِ الصوت...''

هنا بدأ أدهمُ يتعرَّقُ، وتَسارعَ نَفَسُهُ ''إنَّهُ ذاتُ الرَّجل! ولكن... البارحةَ سَمِعتُ الصوتَ، ولكنّي لم أَرَه! لم أَرَ الرَّجلَ، يا يحيى! لم يكن هناك! ماذا يعني هذا؟''

ابتَسمَ يحيى مَرَّةً أُخرى، تلكَ الابتسامةُ التي باتَ أدهمُ يَكرهُها

''رُبَّما الجُنونُ ليسَ كما تعتقد... رُبَّما هو جُزءٌ مِن الحقيقةِ التي تهرُبُ منها''
أدهمُ، وقد ضاقَ ذَرعًا بكُلِّ تلكَ الكلماتِ الملتوية، وَقفَ فجأةً كأنَّهُ يُريدُ أن يُغادِر، لكنَّهُ توقَّف، كان هناك شيءٌ في الهواء... كأنَّ الغُرفةَ كُلَّها تَنبُضُ بشيءٍ غيرِ مَرئيٍّ، شيءٌ ثقيل...
''أخبِرني، يحيى... هل تعتقدُ أنَّني مَجنون؟''
"أنا؟ لا أعتقد. لكن ربما... أنتَ فقط لا تفهم بعد."خرج دون أن يلتفت.

في تلك الليلة، وبينما كان أدهمُ مستلقيًا على سريره، سمعه مجددًا... الصوت. كان خافتًا في البداية، لكنه أصبح أوضح مع كلِّ ثانية.
كان يُناديه باسمه، تلك النبرةُ الغريبةُ التي تحمل في طيّاتها وعدًا بشيءٍ مخيف. حاول أن ينهض، لكنه شعر أن جسدَه مثقلٌ، كأنَّ شيئًا غيرَ مرئيٍّ يجثم فوق صدره، وعندما التفت نحو المرآة المعلَّقة على الحائط، تجمَّد في مكانه. لم يكن انعكاسه هناك. كان الرجلُ الغريبُ يقف مكانه، ينظر إليه بعينين خاويتين وابتسامةٍ مشوَّهة.
"ماذا تريدُ مني؟!" صرخ أدهم بصوتٍ خافت، لكن انعكاسَ الرجلِ لم يتحرك. بقي هناك، صامتًا.
في الصباح التالي، ذهب إلى يحيى. كان شاحبَ الوجه، منهكًا، كأنَّ الليلةَ سلبتْ منه سنواتِ عمره.
"لقد رأيتُه. كان في غرفتي... في المرآة."
نظر يحيى إليه، ثم أدار رأسه ببطءٍ نحو النافذة، كأنَّ ما قاله أدهمُ لم يكن مفاجئًا على الإطلاق.
"وأين المشكلة في ذلك؟"
"أين المشكلة؟! إنه يتبعني، يحيى! إنه في كلِّ مكانٍ أذهب إليه!"
"ربما لأنه ليس في الخارج، بل في الداخل."
"ما الذي تتفوَّه به؟!" صرخ به غاضبًا. "إن كنتُ لا أتوهم، فلا بدَّ أن تراه معي! طوله، عيناه، أنفاسه، ملابسه... إنني أتذكّر كلَّ شيء! نعم، كلَّ شيء! يجب أن تراه معي!"
ابتسم يحيى كعادته، وترك أدهم يُعيد بقيةَ صرخاته العالقة في حلقه إلى جوفه، حتى خرجت دموعٌ كاويةٌ على خدَّيه.

مرت الأيام، وأدهم أصبح غريبًا حتى على نفسه. لم يعد يعرف ما إذا كان ما يراه حقيقيًا أم لا. تلك الليلة التي وجد فيها الرسالة على مكتبه، بخطِّ يده، رغم أنه لم يكتبها، كانت القشَّةَ التي قصمت ظهره:
"لا تهرب. أنتَ تعرف الحقيقة."
وحين سأل يحيى عن الرسالة، لم يبدُ عليه أي اندهاش. بالعكس، بدا وكأنه ينتظر السؤال

"أحيانًا، العقل يخلق هذه الرسائل ليحمي نفسه. لكن السؤال، أدهم، ليس من كتبها... بل لمن كُتبت."
كلماته جعلت أدهم يرتجف، شيءٌ ما في طريقة حديثه جعله يشعر أن يحيى يعرف أكثر مما يقول.

وفي إحدى الليالي، استيقظ أدهم على طرقٍ شديدٍ على بابه. كان الوقت متأخرًا، والظلام يملأ شقوق المنزل. فتح الباب بيدين مرتجفتين، ليجد يحيى واقفًا هناك، يحمل في يده كتابًا قديمًا، ووجهه غارق في مزيجٍ من العرق والتراب.

"يحيى... ماذا تفعل هنا؟"

ابتسم يحيى... تلك الابتسامة البطيئة التي أصبح أدهم يراها في كوابيسه، أردفها وهو يضحك، متقدِّمًا إلى عتبة المنزل، صافعًا وجه أدهم بجملةٍ بدت غير مفهومة:
"العقلُ أضعفُ مما نظن، يكفي أن تزرع بذرة الشك... وستنمو كوحش."
بان من خلف كتف يحيى رأسُ الرجل. بدأت أنفاسُ أدهم تتقطّع، ثم صرخ في يحيى:
"انظر خلفك! إنني لا أجنُّ، إنه خلفك! هذا هو الرجل!"
بانت أضراسُ الرجلِ الضاحكة في العتمة التي لا يضيئها غيرُ إنارةِ الشارعِ الخفيضة.
بدأ أدهم يعرق، تتقطّع كلماته، وتخرج عيناه مظهرةً كلَّ أشكالِ الفزع، ضحكت شفتاه كنوعٍ من اليقين... نحن هنا جميعًا.
"أنتَ تنظر إليه... إنه يضحك... التفتْ إليه!"
كان أدهم يصرخ بيحيى، موقفًا إياه عن تجاوزه، لكن الرجل ذا الهيئة المفزعة بدأ يتقدَّم.
بدأ أدهم يشير إلى يحيى بهلع: "انتبه! إنه هو! هذه المرة أنتَ معي! أنتَ تراه، صحيح؟ إنه خلفك بمترٍ واحد فقط! إنه يضحك لي... إنه... إنه يقول اسمي! هل تسمع، يحيى؟ أرجوك، انظر!"

كانت الدموع تتدفق من عينيه حتى إنه لم يكن يرى ابتسامة يحيى، إلى أن شقَّت أذنه قهقهاتُه. كان صوته قاطعًا سيلَ الرعب في قلب أدهم، حتى توقفت ملامحه عن الاستغاثة
ضحك يحيى بصوتٍ عالٍ، ثم استعجل في خطواته، كمن يدخل منزله. تبعه الرجل الغامض كظله، بقي أدهم ينظر إليهما وهما يدخلان منزله... حتى تحركت قدماه خلفهما.
أغلق يحيى الباب خلفه بهدوء، بعد أن أشار لأدهم أن يجلس. وتحت دهشةِ المشهد، كانت عيناه تتأملان أدهم... كأنه يرى لوحةً فنية يوشك على إنهاء تفاصيلها الأخيرة.

كان أدهم يجلس على الأريكة، متعبًا، مهزومًا، وكأنَّ وزنًا لا يُحتمل يجثم على روحه.
"أدهم، أتدري لماذا أنا هنا؟"

صمت قليلًا، ثم أكمل دون أن ينتظر إجابة:
"لأنك أصبحت جاهزًا أخيرًا لتفهم. ما حدث معك لم يكن سوى انعكاسٍ لما يحدث لنا جميعًا، كبشر. نحن مخلوقاتٌ هشَّةٌ جدًا، يا صديقي، أرقّ مما نظن. عقولُنا يمكن أن تُشكَّل مثل الطين بين أيدي من يعرف كيف يتلاعب بها."

أدهم نظر إليه بعيونٍ متَّسعة، مرتبكة، عاجزة عن استيعاب الكلمات
"ماذا تقصد؟! ماذا تعني بكل هذا؟!"

جلس يحيى أمامه مباشرة، وضع الكتاب القديم على الطاولة، ثم أمسك بيديه برفق.
"منذ البداية، أردت أن أثبت شيئًا. أردت أن أُريك مدى سهولة أن يصبح الإنسان أسيرًا لأوهامه، أن يصدق عن نفسه شيئًا لم يكن فيه يومًا. نحن، كبشر، لا نرى الحقيقة كما هي، بل نرى ما يُزرع في عقولنا تدريجيًا، قطرةً بعد قطرة، حتى يصبح الوهم واقعًا لا مفرَّ منه."

كان أدهم ينظر إليه كأنه يحاول أن يفهم ما إذا كان ما يسمعه حقيقة أم كابوسًا آخر.
"أنت فعلتَ هذا بي؟! كل شيء... الأصوات، الرجل الغريب، الرسائل... كلها من تخطيطك؟!"

ابتسم يحيى، تلك الابتسامة الماكرة التي جعلت أدهم يشعر أن الهواء في الغرفة أصبح أثقل.
"نعم، كل شيء. حتى الساعة والوقت، لم تستطع أن تثق بنفسك. كنتَ أنت التجربة. أردتُ أن أرى إلى أي مدى يمكن أن يصدق الإنسان ما يُلقى عليه، وكيف أن مجرد تلميحٍ بسيط يمكن أن يحطِّم يقينه بنفسه. لم أفعل الكثير، لأن بعض الأفعال نعم، كنتُ أختلقها، ولكن عقلك دائمًا يكمل الباقي."

"لكن لماذا؟! لماذا أنا؟!" صرخ أدهم، ودموعه تتساقط دون أن يدري.

"لأنك كنتَ الأقرب إليَّ، ولأنك، يا صديقي، كنتَ تمثل لي الإنسان كما هو: كائنٌ هش، يسهل ترويضه. أردتُ أن أثبت لنفسي أولًا، ثم للعالم، أننا لسنا سوى نتاجٍ لما نسمعه ونراه. هل رأيتَ كيف

صدَّقتَ أن الرجل الغريب يطاردك؟! كيف بدأتَ تسمع أصواتًا لم تكن هناك أبدًا؟! كل ذلك بدأ بكلمةٍ واحدة... شكٍّ بسيطٍ زرعته فيك."
أدهم تراجع في مقعدِه، كأنَّه يحاول أن يبتعد عن يحيى دون أن يتحرَّك.
أخذ يحيى يتمتم:
"كم فيك منك... كم اجترحتَ من اليقين... وكم تظنُّ؟"

"أنت... أنت مجنون! أنت شيطان!"

"ربما، لكن هذا ليس مهمًّا الآن. المهمُّ هو ما ستفعله أنت بهذه المعرفة. سترى، يا أدهم، أنَّ ما مررتَ به ليس إلَّا صورةً مصغَّرةً لما يحدث في كلِّ مكانٍ حولنا. نحن جميعًا ضحايا لهذه اللعبة؛ الإعلام، المجتمع، الأفكار التي تُبَثُّ إلينا يوميًّا... كلُّ شيءٍ حولنا يزرع شيئًا فينا، حتى نبدأ نُصدِّق أنَّنا شيءٌ لسنا عليه."

وقف يحيى، وتوجَّه نحو النافذة، ثم استدار لينظر إلى أدهم نظرةً حادَّةً قاسية، لكنَّها ممتلئةٌ بالهدوء الغريب الذي كان دائمًا يميِّزه.

"الآن، السؤال ليس لماذا فعلتُ هذا، السؤال الحقيقي: هل ستخرج من هذا أقوى، أم أنَّك ستبقى أسيرًا لما اعتقدتَ أنَّك أصبحتَ عليه؟"

أدهم لم يستطع الإجابة. كان يشعر أنَّ عالمه انهار بالكامل، وأنَّ كلَّ ما كان يظنُّه حقيقةً ليس سوى سراب.

وقبل أن يغادر يحيى، ألقى جملةً أخيرة، بصوتٍ خالٍ من أيِّ ندم:
"لا تأخذ الأمر شخصيًّا، يا صديقي. أنت لم تكن سوى فأر تجارب، واحدٍ فقط في هذه الحياة المليئةِ بالتجارب."

وأغلق الباب، تاركًا أدهم وحده، وسط فوضى عقله المنهك، ليواجه الحقيقة المرعبة: أنَّ الوهم، أحيانًا، أقوى من الواقع.

مخلِّفًا وراءه الرجل الغريب، يبتسم بصمتٍ مرعب.